أوروبا الغربية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين جبهات داخل جبهات داخل جبهات

في مؤتمر حزب العمال البريطاني عام ١٩٦٠ اتُّهم (مايكل فوت Micheal Foot) الزعيم المقبل للحزب وعضو جناحه اليساري، من قبل زعيم الحزب في ذلك الحين (هيو غيتسكيل Hugh Gaitskell) بأنه «رفيق درب fellow traveller» بمعنى أنه ليس عضواً عاملاً. كان رد فوت أنه، في إشارة إلى غيتسكيل وآخرين من الجناح اليميني، سأل: «ولكن مع من هم مسافرون»؟ [١].

تبين فيما بعد أن رفقتهم كانت مع وكالة المخابرات المركزية منذ بعض الأعوام. أما الركاب المرافقون لهم فقد كانوا فرنسيين، وألماناً، وهولنديين، وإيطاليين وكثيرين آخرين من دول أوروبا الغربية، وكانوا جميعاً مشاركين في عملية تقودها وكالة المخابرات المركزية لكسب أفئدة وعقول الليبراليين، والديموقراطيين الاجتماعيين، واشتراكيين متنوعين، لحمايتهم من الوقوع في مخالب الدب الروسي.

كان ذلك مشروعاً ذا أبعاد رئيسية، فعلى مدى نحو عشرين عاماً، استخدمت الوكالة عشرات من المؤسسات الأمريكية، وأمانات الأعمال الخيرية وما شابه، من ضمنها بضع مؤسسات من صنعها، كقنوات لتقديم دفعات من المال إلى منظمات من كل الأنواع داخل الولايات المتحدة وخارجها، والعديد من هذه المؤسسات كان، بدوره، يموّل مجموعات أخرى. كان عدد المؤسسات التي لها علاقة بذلك كبيراً، وكان عدد العلاقات فيما بينها والتداخل بينها كبيراً إلى حد أنه لم يكن من المحتمل أن يستوعب أي شخص في وكالة المخابرات المركزية الصورة الكاملة، دعك عن ممارسة إشراف عريض عليها أو القيام بمحاسبة صحيحة. (راجع الملحق المتضمن خارطة تنظيمية جزئية).

أمـا المتـفـعـون فـي نهـاية الأمـر من هذا السـيل من النقـد فـقـد كـانوا أحـزاباً سيـاسيـة، ومـجـلات، ووكالات أنباء، ونقـابات صـحـفيـين ونقابات أخرى ومنظمات عماليـة، وهيئات طلابية وشبابية، وروابط محـامين، وغير هؤلاء من الجهات الملتزمة «بالعالم الحـر» الذي يمكن الاعتمـاد عليه في زيادة نشر بشـارة الإنجيل إذا زوّدت بما يكفي من المال.

إن المنظمـة الأمـامية الرئيسـية التي أقامتهـا وكالة المخابرات المركزية في هذه المدة كـانت المنظمـة التي أطلق عليـهـا اسم فـخم هو «كـونغـرس من أجل الحـرية الثقـافيـة». في شـهر حزيران (يونيـو) ١٩٥٠ تجمّع أدباء وعلماء بارزون من الولايات المتحدة وأوروبا في قاعة مسرح قصر (تيتيانا Titiana) الواقع في القطاع الأمريكي من برلين، بمواجهـة حضـور كبيـر لإطلاق منظمـة كـانت غـايتهـا «الدفاع عن الحرية والديموقراطيـة ضـد الاسـتبداد الجديد الذي يكتسح العـالم». وسـرعـان مـا امـتدت هذه المنظمـة في كل الاتجاهات، مع حلقـات بحث، ومؤتمـرات وبرنامج واسـع لأنشطة سيـاسية وثقـافيـة في أوروبا الغربيـة وفي الهند، واسـتراليـا، واليابان، وأفريقيـا وبلدان أخرى. عـلاوة على ذلك، كـان لهـا أكثـر من ثلاثين مطبـوعـة فـصليـة تحت جناحـهـا المالي، من ضمنها، في أوروبا:

- **في بريطانيا العظمى:**

سوشالست كومنتري Socialist Commentary

سيانس اند فريدام Science and Freedom

منيرفا Minerva

سوفييت سورفي (او سورفي) (Soviet Survey) or Survey

شاينا كوراترلي China Qwarterly

انكاونتر Encounter

في فرنسا:

بروف Preuves

سنسور كونتر ليزارت أي لا بنسي Censure Contre les Artes et la Pensee

موندو نويفو mundo Nuevo

كوادرنوس Cuadernos

(الأخيرتان باللغة الاسبانية لإرسالهما إلى أمريكا اللاتينية)

بيرسبكتيف Perspektiv في الدانمرك

ارغومنتن Argumenten في السويد

ايرودالمي يوساغ Irodalmi Ujsag في هنغاريا

در مونات Der Monat في ألمانيا

فوروم Forum في النمسا

تمبو بريزنتي Tempo Presente في ايطاليا

فيزيون Vision في سويسرة

وكانت للالتقاء روابط مع (نيو ليدر New Leader)، و(افريكا ريبورت Africa Report) و(ايست يورب East Europe) و(أطلس Atlas) في نيويورك [٢].

وبشكل عام، كانت فصليات المنظمة مجلات سياسية وثقافية راقية الأسلوب، ويقول المدير السابق في وكالة المخابرات المركزية (راي كلاين Ray Cline) «إنه ما كان بإمكانها أن تستمر مالياً بدون الأموال التي تدفعها لها وكالة المخابرات المركزية» [٣].

بين المنظمات الإعلامية الأخرى في أوروبا التي كانت تساعدها بالأموال وكالة المخابرات المركزية في ذلك الوقت وكالة أنباء المانيا الغربية (دينا Dena) (عرفت

لاحقاً باسم دي بي أي (A.P.D) (٤). والجمعية الدولية للكتاب (بن PEN)، مقرها في باريس، وصحف فرنسية معينة (٥)، واتحاد الصحفيين، و(فوروم وورلد فيتشرز – Forum World Feoture) وهي مؤسسة خدمات إخبارية في لندن كانت مواضيعها تشترى من قبل نحو ١٤٠ صحيفة في سائر أنحاء العالم، من ضمنها ٣٠ صحيفة في الولايات المتحدة، ومن بين هذه الثلاثين صحيفة: واشنطن بوست وأربع صحف يومية كبرى أخرى. لقد ذكرت لجنة الكنيسة في مجلس الشيوخ الأمريكي أن «صحفاً يومية أمريكية كبرى، كانت تستفيد من هذه الخدمة الإخبارية أُبلغت أن (فوروم وورلد فيتشرز) «خاضعة لإشراف وكالة المخابرات المركزية». استفادت أيضاً جريدتا (ذا غارديان The Guardian) و(صنداي تايمز Sunday Times) في بريطانيا العظمى من هذه الخدمة الإخبارية التي كان اسمها سابقاً (فوروم سيرفيس Forum Service). ويقول أحد الكتّاب الرئيسيين في (فوروم): إنه مع حلول عام ١٩٦٧ أصبحت هذه الخدمة الاخبارية «الجهد الإعلامي الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية في العالم»، وهذا ليس بالإنجاز الضئيل إذا علمنا أن وكالة المخابرات المركزية في أوج نشاطها، كانت تخصص ما قيل: إنه ٢٩ بالمئة من ميزانيتها للإعلام والدعاية (Propaganda) (٦).

ثمة متلقٍ مهم آخر من بين الذين يحصلون على أموال من وكالة المخابرات المركزية هو (اكزل شبرنغر Axel Springer) قطب الصحافة في ألمانيا الغربية الذي سُربت إليه سراً سبعة ملايين دولار في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين لمساعدته في بناء امبراطوريته الصحفية الشاسعة. وكان شبرنغر، حتى وفاته في عام ١٩٨٣ رئيس أكبر تجمع لدور النشر في أوروبا الغربية، ثابتاً كالطود في محاباته الغرب ومعاداته للشيوعية. لقد قال ناشر مجلة (در شبيغل Der Spiegel) الألمانية الغربية الأسبوعية الواسعة النفوذ، (رودلف أوغستين Rudolf Augstain)، «ما من رجل فرد في ألمانيا، قبل هتلر أو بعده، ربما باستثناء بسمارك والامبراطورية، كان يملك من القوة مقدار ما يملكه شبرنغر». ويقال: إن علاقته مع وكالة المخابرات المركزية استمرت على الأقل حتى مطلع السبعينيات من القرن العشرين (٧).

إن مؤسس البرنامج الأمريكي (توم برادن Tom Braden) رئيس قسم المنظمات الدولية في وكالة المخابرات المركزية كتب فيما بعد أن الوكالة عينت أحد المسؤولين في منظمة (كونغرس من أجل الحرية الثقافية) وأصبح مسؤول آخر رئيس تحرير أهم مجلة تصدر عن (كونغرس من أجل الحرية الثقافية)، هي مجلة (انكاونتر En-counter) [٨]. ومن المحتمل أنه كان في كل مجموعة تتلقى أموالاً عميل على الأقل أو ضابط من وكالة المخابرات المركزية. لقد قال (برادن): «إن عملاء الوكالة كان بوسعهم أن يقترحوا برنامجاً ضد الشيوعية على القادة الرسميين للمنظمات. وأضاف، غير أنه كانت هناك سياسة «لحماية نزاهة المنظمة عن طريق عدم الطلب إليها مساندة كل جانب من جوانب السياسة الرسمية الأميركية» [٩].

إن مجلات الحرية الثقافية كانت تخاطب اليسار غير الماركسي (على النقيض كانت مجلة فوروم مجلة محافظة) تعالج بصورة عامة صراع الطبقات والإفراط في تأميم الصناعة. وهم انتسبوا إلى أطروحة «نهاية الأيديولوجيا» لمؤلفها (دانيال بل) وأساس فكرتها هو بما أن لا أحد يستطيع أن يدعو عن قناعة إلى موت الرأسمالية، فإن فكرة موت الاشتراكية أو أية أيديولوجية أخرى يجب الحط من قيمتها. وفي الوقت ذاته فإن المجلات نادت بإصلاح الرأسمالية أي أن تكون رأسمالية بوجه إنساني.

كانت فكرة إصلاح الرأسمالية بالنسبة لأنصار الحرب الباردة في واشنطن الذين كانوا يدفعون الأموال لا تثير إلا الحد الأدنى من الاهتمام. كانت نتيجة ذلك التزام المجلات بأوروبا غربية موحدة وقوية وجيدة التسليح وحليفة للولايات المتحدة، من شأنها أن تمثل قلعة ضد الكتلة السوفييتية، وأن تساند السوق المشتركة ومنظمة حلف شمال الأطلسي، وأن تقوم بتحليل نقدي لما كان يعتبر التكوين الفكري للتخريب الذي تمارسه الشيوعية الدولية، وأن تدعو إلى التشكيك في نزع السلاح، والتهدئة، والحياد، هذه الأمور التي كانت تتبناها الحملة البارزة لنزع السلاح النووي في بريطانيا العظمى وما شابه هذه الحملة. أما نقد السياسة الخارجية الأميركية فقد كان يحدث في إطار فرضيات الحرب الباردة. على سبيل المثال، إن تدخلاً أميركياً معيناً ليس الطريقة الأكثر

فاعلية في مكافحة الشيوعية، ولا يعني ذلك أن هناك خطأ في التدخل من حيث أنه تدخل ولا يعني أن الولايات المتحدة تساند الجانب الخطأ.

المطبوعات «الخاصة» كهذه يمكن أن تنافح عن وجهات النظر التي لا تستطيع الأجهزة الحكومية الرسمية الأمريكية كإذاعة صوت أميركا أن تنافح عنها، ومع ذلك تظل لها صدقيتها. والشيء ذاته يصدق في العديد من المنظمات الخاصة الأخرى التي كانت تتلقى أموالاً من وكالة المخابرات المركزية في ذلك الحين.

في عام ١٩٦٠ نجحت حملة نزع السلاح النووي وعناصر أخرى من الجناح اليساري في حزب العمال في كسب مؤتمر الحزب إلى جانب سياسة نزع السلاح النووي نزعاً كاملاً من طرف واحد، والحياد في الحرب الباردة. إضافة إلى ذلك، رفض المؤتمر مشروعي قرارين يدعوان إلى تأييد حلف شمال الأطلسي. ومع أن حزب العمال لم يكن آنذاك في الحكم، فإن هذه الأعمال كانت لها قيمة كبيرة دعائياً ونفسياً. كانت نظرة واشنطن إلى تطور الأحداث مشوبة بقلق غير قليل، لأن مثل هذه المشاعر يمكنها أن تنتقل إلى أحزاب رئيسية في البلدان الأخرى الأعضاء في حلف شمال الأطلسي.

إن الجناح اليميني في حزب العمال الذي كانت له علاقات وثيقة، ولا نقول حميمية، مع مطبوعات «كونغرس الحرية الثقافية» (انكاونتر)، و(نيو ليدر)، وغيرهما من «ممتلكات وكالة المخابرات المركزية وجبهاتها»، تعهد بتنظيم حملة هدفها أن تقلب قرار نزع السلاح إلى عكسه. واللجنة التي شُكّلت لهذه الغاية أصدرت نداء للحصول على أموال، وسرعان ما أعلنت أنها تلقت العديد من التبرعات الصغيرة، مع مبلغ كبير جاءها من مصدر رغب في إبقاء اسمه مكتوماً. طوال السنة التالية كان هناك تمويل يكفي لإقامة مكتب دائم، وتعيين رئيس للمكتب بدوام كامل ومدفوع الأجر، وتعيين موظفين مدفوعي الأجر، وعاملين في الميدان، ولتغطية نفقات السفر، وإصدار أطنان من النشرات التي أرسلت إلى قائمة كبيرة من العناوين ضمن الحركة ونشرة منظمة توزع مجاناً.

لم يكن خصومهم قادرين على الاقتراب من مماثلة هذا الهجوم الدعائي. في مؤتمر عام ١٩٦١، رفضت القرارات الداعية إلى الأحادية والحياد رفضاً قاطعاً وعاد حزب العمال إلى حظيرة حلف شمال الأطلسي. [١٠].

كان مؤيدو وكالة المخابرات المركزية يدافعون دائماً عن أنشطة الوكالة العديدة في أوروبا الغربية بحجة أن الروس كانوا السباقين في العمل هناك وكان لابد من مجابهتهم. ومهما يكن مقدار الصحة في هذا التأكيد تبقى الحقيقة هي ما قاله (توم برادن): «إن الجهد الأميركي انتشر في بعض المجالات «حيث لم يكن الروس قد بدؤوا العمل بعد» [١١].

لم يحدد برادن ما هي هذه المجالات ولكن يبدو أن الأحزاب السياسية هي واحدة منها. لقد كانت لوكالة المخابرات المركزية علاقات عمل/ وتمويل مع كبار أعضاء الحزب الديمقراطي الاجتماعي في ألمانيا الغربية، ومع حزبين في النمسا، ومع حزب المسيحيين الديموقراطيين في إيطاليا ومع الحزب الليبرالي إضافة إلى حزب العمال في بريطانيا [١٢]، وربما كان هناك حزب واحد على أقل تقدير في كل بلد آخر من بلدان أوروبا الغربية، جميعها يفترض أنها مستقلة عن أي من القوتين العظميين، وهذا أمر لم تستطع الأحزاب الشيوعية، سواء التي تلقى مساندة الاتحاد السوفييتي أو لا تلقاها، أن تتقبله بسهولة.

يوفر لنا الإعلام حالة أخرى تستدعي التوقف عندها. لم يقدم لنا برادن ولا أي شخص غيره على ما يبدو أمثلة عن مطبوعات أو وكالات أنباء في أوروبا الغربية - موالية للشيوعية أو معادية للحلف الأطلسي، الخ - ظاهرها أنها مستقلة في الحرب الباردة ولكنها سراً تتلقى تمويلاً من الاتحاد السوفييتي.

أهم من ذلك أنه يجب أن نعي أن جميع أنواع المشاريع والمؤسسات المدعومة من وكالة المخابرات المركزية في أوروبا الغربية كانت تلقى مساندة من وكالة المخابرات المركزية في سائر أنحاء العالم الثالث على مدى عقود من السنين على أساس روتيني

دون أن يكون هناك مقابل روسي منظور. إن القوة المتنامية لليسار في أوروبا ما بعد الحرب كانت محركاً كافياً لجعل وكالة المخابرات المركزية تطور برامج سرية، وهذا ظرف مستمد من الحرب العالمية الثانية وحقائق الحياة الاقتصادية، وليس من الدعاية السوفييتية.

عملية غلاديو Operation Gladio

الأساس المنطقي وراء هذه العملية هي ريبتكم الدائمة في الحرب الباردة: هنالك احتمال كبير بأن يشرع الروس في غزو أوروبا الغربية بدون استفزاز. وإذا ما تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالجيوش الغربية وأرغموها على الفرار لابد من بقاء أشخاص معينين لكي يزعجوا الروس بحرب عصابات وبأعمال تخريب وليكونوا صلة اتصال مع أولئك الذين في الخارج. إن الذين سيبقون في الأرض سيتم تزويدهم بأموال وأسلحة وأجهزة اتصالات وتمارين التدريب. إن التخطيط لهذه الشبكة السرية شبه العسكرية، التي أطلق عليها اسم «عملية غلاديو» (كلمة غلاديو إيطالية تعني السيف) بدأ في عام ١٩٤٩، وشمل في أول الأمر البريطانيين والأمريكيين والبلجيكيين. مع مرور الزمن أقامت وحدات في كل بلد أوروبي غير شيوعي - من ضمنها اليونان وتركيا والسويد وسويسرا الدولتان الحياديتان - مع استثناء ظاهر يتمثل في ايرلندا وفنلندا. إن مسألة ما إذا كانت هذه الوحدات خاضعة أكثر لإشراف الحكومات الوطنية أو لحلف شمال الأطلسي تظل أمراً غير واضح عن قصد مع أنه يبدو من وجهة النظر العملانية أن وكالة المخابرات المركزية ومختلف أجهزة المخابرات الأخرى كانت هي التي تصدر الأوامر.

وتبين فيما بعد، أنه في غياب كامل لأية غزوات روسية استخدمت العملية بصورة حصرية تقريباً لإلحاق ضرر سياسي بالحركات اليسارية الداخلية.

إن حكاية غلاديو تفجرت في إيطاليا في خريف عام ١٩٩٠، وكان منشأ تفجرها تحقيقاً قضائياً في حادث انفجار سيارة في عام ١٩٧٢ وقد أظهر التحقيق

أن المتفجرات جاءت من أحد ١٣٩ مستودعاً سرياً للأسلحة احتفظ بها لقوات غلاديو في إيطاليا. وتبعاً، لذلك، فإن رئيس هيئة التحقيق البرلمانية الإيطالية في هذه المسألة كشف النقاب عن أنه «عندما بدأت عملية غلاديو كان الأميركيون يصرون في أكثر الأحيان على أن المنظمة يجب أن تستخدم أيضاً لمجابهة أية عمليات انشقاق». لقد روى الجنرال اليوناني المتقاعد (نيكوس كوريس Nikos Kouris) قصة مماثلة، معلناً أن قوة يونانية شكلت بمساعدة من وكالة المخابرات المركزية في عام ١٩٥٥ للتدخل في حالة حدوث تهديد شيوعي، سواء كان خارجياً أو داخلياً. «كان هناك عسكريون سابقون، وجنود مدربون تدريباً خاصاً ومدنيون أيضاً. إن ما جمع بين هؤلاء هو قاسم مشترك أيديولوجي واحد: «التطرف اليميني».

إن العملية الإيطالية، كما في ألمانيا كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإرهابيين. لقد صارح (روبرتو كافاليرو Roberto Cavallero) العميل السابق في عملية غلاديو الرأي العام بقوله إنه كانت هناك صلة مباشرة بين غلاديو وموجة التفجيرات الإرهابية في إيطاليا خلال السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن العشرين والتي أدت إلى موت ما لا يقل عن ٣٠٠ شخص. وقال: «إن غلاديو كانت قد دربته مع كثيرين غيره لإعداد مجموعات مهمتها، في حالة تقدم قوات الجناح اليساري في بلدنا أن تملأ الشوارع، وأن تخلق حالة من التوتر تستدعي تدخلاً عسكرياً». لقد كان كافاليرو بطبيعة الحال يشير إلى النجاحات الانتخابية للحزب الشيوعي الإيطالي وليس إلى غزو من قبل الاتحاد السوفييتي.

كان أسوأ عمل إرهابي فرد هو تفجير محطة السكة الحديدية في بولونيا في شهر آب (أغسطس) عام ١٩٨٠ الذي أودى بحياة ٨٦ شخصاً. وقد قالت جريدة «الاوبزرفر» اللندنية فيما بعد:

«إن اللوم في تفجيرات السكك الحديدية الإيطالية كان موجهاً إلى اليسار المتطرف كجزء من استراتيجية ترمي إلى إقناع الناخبين بأن البلد في حالة توتر وأنه لا بديل أمامهم سوى الاقتراع لصالح الحزب الديموقراطي المسيحي. إن كل الدلائل تشير إلى أن العقل المدبر لهذه الأعمال كان من داخل غلاديو».

أحد الرجال المطلوبين لاستجوابهم في إيطاليا حول تفجير بولونيا، هو (روبرتو فيوري Roberto Fiore) الذي عاش في لندن منذ ذلك الحين ورفضت الحكومة البريطانية ترحيله. يبدو أنه تحت جناح الحماية للاستخبارات البريطانية (M16) التي زوّدها بمعلومات استخبارية قيّمة.

إن خطف (الدو مورو Aldo Moro) زعيم الديموقراطيين المسيحيين وقتله في عام ١٩٧٨، هذا العمل الذي عُزي إلى الألوية الحمراء، يبدو الآن أنه كان هو أيضاً من عمل عملاء غلاديو الاستفزازيين الذين تسللوا إلى المنظمة. وكان مورو قد أعلن قبيل خطفه أنه عازم على الدخول في حكومة ائتلافية مع الحزب الشيوعي.

في بلجيكا، عام ١٩٨٣، ولإقناع الرأي العام بوجود أزمة أمنية، قام مديرو غلاديو وضباط الشرطة بسلسلة من عمليات إطلاق نار بصورة عشوائية في محلات السوبرماركت، وهذه السلسلة، سواء عن قصد أم عن غير قصد، أدت إلى عدة وفيات. بعد ذلك بعام، قفزت مجموعة من المارينز الأمريكيين بالمظلات في بلجيكا بقصد مهاجمة مركز للشرطة. قُتل في هذه العملية مواطن بلجيكي وفقد أحد رجال المارينز عينه في العملية، التي كانت مدبرة لزج الشرطة البلجيكية المحلية في حالة تأهب أعلى، ولإعطاء السكان الذين يشعرون بالراحة، الانطباع بأن البلد على حافة ثورة شيوعية. المسدسات التي استخدمت في العملية خبئت لاحقاً في أحد منازل بروكسل، وهو منزل كانت تستعمله مجموعة شيوعية منشقة.

obeikandl.com